أبو اسحاق الحصرى القيروانى
ونظرات فى تراثه الأدبى

للدكتور / على محمد على طلب
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

التعريف بأبى اسحاق الحصرى(١) :

هو أبو اسحاق ابراهيم بن على بن تميم المعروف بالحصرى القيروانى ، من أشهر أدباء القيروان ، فى القرن الخامس الهجرى ، وهو صاحب المؤلفات الأدبية القيمة التى منها « زهر الآداب وثمر الألباب »، وكتاب « المصون فى سر الهوى المكنون » وكتاب «جمع الجواهر» وغيرها من المصنفات النافعة المفيدة .

---

(١) انظر فى ترجمة أبى اسحاق الحصرى : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٤/١ وما بعدها تحقيق الدكتور احسان عباس ط دار صادر بيروت ، معجم الأدباء لياقوت الحموى ٩٤/٢ وما بعدها ط دار المأمون بالقاهرة ، مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى الورقة ٣٠٩ (مخطوطة أيا صوفيا) والذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (الجزء الرابع) ، شعراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيق القيروانى ص ١٩ وما بعدها جمع زين العابدين السنوسى ط دار المغرب العربى تونس ١٩٧٣م ، الوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى ٦١/٦ ط دار صادر بيروت ١٩٦٧ ، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٥/٥ وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة ، الأعلام للزركلى ٤٤/١ ط بيروت ١٩٦٩ .

ولقد ولد الحصرى بالقيروان • تلك المدينة العريقة الشهيرة بالعلم والعلماء فنهل من علمائها واغترف من دور العلم بها • خاصة أن هذه المدينة كانت مقصد طلاب العلم الذين يتتلمذون على جلة العلماء فيها ويترددون على مكتباتها الحافلة بالكتب العلمية النفيسة والمعارف المختلفة المتنوعة •

ولقد اختلف فى تاريخ مولد أبى اسحاق الحصرى ، فمن قائل أنه ولد عام ٣٣٠هـ ومن قائل انه ولد فيما بين ٣٧٠هـ — ٣٨٠هـ ، وهذا كله نوع من الاستنتاج لبعض المتأخرين الذين تحدثوا عنه وترجموا له ، وقد نظروا فى ذلك الى الخلاف فى تاريخ وفاته •

والحصرى كما قال ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) نسبة الى عمل الحصر أو بيعها ومن ثم شكلها بضم الحاء وتسكين الصاد •

وهذه النسبة توحى بأنه أو أحد آبائه او أجداده كان يبيع الحصر أو يعملها ، ولذا نسب الى هذه المهنة فقيل (الحصرى) •

ويرى أحد الباحثين المحدثين وهو الأديب عمر رضا كحالة أن الحصرى نسب الى قرية تسمى (الحصر) وهى قرية حذو القيروان(٢)، وقد قال بهذا الرأى بعض الأدباء كالأستاذ محمود مصطفى فى كتابه (اعجام الأعلام)(٣) •

وربما كانت نسبة الحصرى الى قرية (الحصر) التى كانت تعرف بعمل الحصر فالنسبة الصحيحة بتسكين الصاد كما ذكر ابن خلكان •

---

(٢) انظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٦٤/١ ط دمشق ١٩٥٧م

(٣) انظر اعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ٩٨ ط الرحمانية ١٩٣٥م •

ولقد كان الحصرى ـــ من مشاهير عصره فقد كان أديبا وشـــاعرا ومعلما ومؤلفا بارعا ، ولقد ترك للمكتبة العربيـــة مؤلفات تدل قيمتها الأدبية على صحة ما شهد له به القدماء من التفوق العلمى والزعامـــة الأدبية ، ولقد تصدر المدرس لطائفة من الشبان آنذاك برزوا فى المجال الأدبى وتفوقوا على أقرانهم ، وكان ابن رشيق القيروانى واحدا منهم، ولقد ذكر ذلك فيما نقله ابن خلكان عنه من كتابه (الأنموذج) حيث يقول : « كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنـــه ، ورأس عندهم وشرف لديهم وســـارت تآليفاته وانثالت عليه الصـــلات من الجهـــات »(٤) .

ولقد كان الحصرى همزة الوصل فى زمانه بين أدب المشارقة وبين تلاميذه الذين حبب اليهم أدب المحدثين من المشارقة ، فتأثروا بمـــا ألفوا وكتبوا أيما تأثير ، بينما كان التذوق لدى المغاربة ينحصـــر فى الأدب القديم ، فلما ظهر الحصرى فى ساحات العلـــم بالقيروان تأثر بأدباء المشرق واستوعب مؤلفاتهم الأدبية وبثها فى وجـــدان تلاميذه ، وظهر هذا التأثر فى فكر تلاميذه كابن رشيق القيروانى أحد شـــعراء الأنموذج ، وهذا كله يدل على قوة تأثير شخصية الحصرى العلميـــة والفكرية فى أدباء عصره ومن تلاهم من الأدباء والنقاد والشعراء .

ولقد عرف الحصرى بموهبته الأدبية وثقـــافته الواسعة واطلاعه الوافر وذوقه الخالص وأخـــلاقه الفاضلة وبعده عن سفاسف القـــول والمجون ، وكان كثير التهجد والتعبد والتلاوة والقيام بالحسبة والغيرة على الدين ، ومـــما يدل عـــلى ورع الحصرى وقوة الحاســـة الدينية عنده أنه قدم كتابه (زهـــر الآداب) بأقوال الرسول صلى الله عليـــه

---

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٤/١ تحقق الدكتور احســـان عباس ط دار صادر بيروت .

وسلم وأصحابه وآل بيته رضوان الله عليهم أجمعين ، وختمه بمثل ذلك تيمنا وتبركا بهذه الأقوال الطيبة المباركة .

ولقد استطاع هذا الرجل الكريم أن يؤثر فى جيله والأجيال بما ترك من مؤلفات قيمة ودروس نافعة وتأثير ملحوظ فى تلاميذه الذين أصبحوا فيما بعد عمد النهضة الأدبية فى المغرب العربى ، وأسهموا فى بناء صرح عظيم من العلم والمعرفة والأدب الرفيع .

ولقد اختلف أيضا فى وفاته ، فقد ذكر ابن رشيق انه مات سنة ٤١٣هـ(٥) ولقد نقل ابن خلكان هذا الرأى فى كتابه (وفيات الأعيان)(٦) الا انه نقل رأى ابن بسام فى الذخيرة من انه توفى سنة ٤٥٣هـ حيث يقول : وقال ابن بسام فى « الذخيرة » : بلغنى أنه توفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، ثم يقول بعد ذلك : « وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه (الجنان) فى ترجمة أبى الحسن على بن عبد العزيز المعروف بالفكيك أن الحصرى المذكور ألف كتابه « زهر الآداب » فى سنة خمسين وأربعمائة ، وهذا يدل على صحة ما قاله ابن بسام والله أعلم » .

ورأى ابن رشيق أرجح وذلك لأنه خالط الحصرى وكان من تلاميذه المقربين ، فهو أعلم بتاريخ وفاته من غيره ، وقد نقل هذا الرأى كثير من المؤرخين من كتاب (الأنموذج) لابن رشيق القيروان، ومما يؤكد هذا الرأى أننا لم نجد شعرا للحصرى فى تخريب الهلاليين للقيروان سنة ٤٤٩هـ وقد تأثر بذلك الحدث جميع شعراء القيروان

---

(٥) انظر : شعراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيق ص ٢٠ ط تونس ١٩٧٣م .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٥٥ تحقيق د. احسان عباس ط دار صادر بيروت .

آنذاك ، وهذا يدل على أن الحصرى قد مات قبل هذا الحدث التاريخى المشـــهور •

ثقافة الحصرى وتأثيره الأدبى :

لقد نهل الحصرى من الثقافة العربية الخالصة ، وعكف على كتب الأدب والشعر والنقد ، وساعدته بيئـــة القيروان العلمية على تكـــوين شخصيته الأدبيـــة تكوينا متكـــاملا ، ولا عجب فى هـــذا فقـــد كانت (القيروان) مقصد طلاب العلم من كل مكان ، وكانت موطن العلمـــاء الذين كان لهم دور بارز فى النهضة العلمية فيها •

ولقد عرف الحصرى بنبوغـــه وتفوقه فى مجال الأدب والشـــعر والنقد ، وكان له ذوق خاص فى فهم الشعر ونقده ، وقد ساعده على ذلك نهجه العلمى الذى استمده من التراث العربى القديم وما كتبـــه النقـــاد والأدباء من المشارقة الأعلام الذين أثروا فى فكـــر الحصرى واتجاهه الأدبى •

ويحدثنا الشيخ عبد العزيز البشرى عن ثقافة الحصرى فى تقديمه للكتاب (جمع الجواهر) فيقـــول : « والحصرى ـــ كما يعرفـــه كل متأدب فى العربية ـــ رجل واســـع العلم عظيم الاطـــلاع نافذ الذوق بليغ الاختيار يؤثر فى تأليفه ارســـال القول ما دعت المناسبة اليـــه ، فيتبع المقـــامة الظريفة بالقصيدة البـــارعة ، ويلحق النادرة الطريفـــة بالخطاب القاطع ، فيتجول بقارئه من فن الى فن ، ويستدرجه من حديث الى حديث ، دون أن يتداخله الملل أو يحس بانطواء الزمن ، بتجديد اللغة ، وتغيير الفكر على مختلف الصور »(٧) •

والقارىء لأدب أبى اسحاق الحصرى يدرك أنه أمـــام موسوعة

---

(٧) جمع الجواهر لأبى اسحق الحصرى ـــ مقدمة الشيخ عبد العزيز البشرى للكتاب ط الرحمانية بمصر عام ١٣٥٣هـ •

علمية متنوعة الفنون والمعارف ، تبرز فيها الثقافة الرفيعة الخالصة مع موهبة علمية تتمثل فى حافظته القوية وكثرة مدوناته ومحفوظاته .

ولثقافة الحصرى روافد متنوعة ، فهى تتمثل فى أساتذته الذين لقيهم وشافههم ، كما تتمثل فى القراءة الكثيرة والاطلاع الواسع والحفظ والتدوين والتحصيل الدؤوب للعلم والمعرفة .

وقد أغفل التاريخ ذكر أساتذته ، ولم ينقل الحصرى عن واحد منهم فى كتبه مما يدل على أن تأثير أساتذته كان محدودا ، أو أنهم من القلة بمكان ، فلم يهتم بذكرهم أحد ، وهذا يدل على أن الحصرى كان عصاميا فى تكوين شخصيته الأدبية ، فقد اعتمد على نفسه فى تحصيل العلوم والمعارف المتنوعة المختلفة ، كما اعتمد على ذكائه وموهبته واستنباطاته وذوقه الأدبى الخالص فى نقد الشعر والأدب .

ولم يكتف الحصرى بالأدب والشعر واللغة والتاريخ فى تكوين شخصيته العلمية والثقافية ، فقد كانت له ثقافات أخرى متنوعة كالمعارف العقلية كبعض أصول اللغة وأصول الفقه والاستنباطات الفقهية ومباحث الفلسفة والمنطق والجدل والمسائل الرياضية ، وكل هذه العلوم والمعارف قد حصلها بالعكوف على الكتب العلمية المتنوعة فى مكتبات القيروان العامة والخاصة .

ولقد كان الحصرى — كما أشرنا الى ذلك من قبل — همزة الوصل بين أدب المشارقة وعلومهم ومعارفهم وبين تلاميذه الذين حملوا عبء النهوض بالآداب والمعارف المختلفة ، ولقد حبب اليهم أدب المحدثين من المشارقة ، بينما كان التذوق لدى الأدباء قبلهم ينحصر فى الأدب العربى القديم واحتذائه والسير على منهاجه .

ولقد كانت مؤلفات هؤلاء الأدباء فى المشرق من روافد الثقافة عند الحصرى ، فقد تتلمذ على كتبهم وعكف عليها ردحا من الزمان

ونهل من معينها وتأثر بها أيما تأثير ، وتسربت أفكار هؤلاء المشارقة الى فكـره وعقله ، ولقنهـا تلاميذه من شبان القـيروان الذين ذاعت شهرتهم فى كل مكان •

ومن تلاميذ الحصرى الذين نهضـوا بالأدب والنقد والشـعر : ابن رشيق القيروانى صاحب كتاب العمدة فى محاسن الشـعر وآدابه والأنموذج وقرائضة الذهب وغيرها من الكتب النافعة المفيدة ، ولقـد تأثر بثقافة أستاذه وفكره ومنهجه الأدبى • ومن تلاميذه : ابن شرف القيروانى الشاعر صاحب رسائل الانتقاد(٨) ، وعبد العزيز الطارقى أحد شعراء القيروان ، وأبو طـاهر التجيبى صاحب شرح (المختـار من شعر بشار)(٩) وأبو عبد الله بن الزاهـد الذى ذكره الزبيدى فى تاج العروس وحدث عنه(١٠) ، وكذلك من تلاميذه أيضا أبو طـاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله الأديب البرقى وغيره من أدباء العصر آنذاك •

ولقد أثر الحصرى فى هؤلاء الأدباء جميعا وغذاهم بثقافته حين تصدر للدرس فى مدينة (القيروان) فى نهاية القرن الرابع الهجـرى وبداية القرن الخامس الهجرى ، ولقد وجه تلاميذه خير توجيه وأوحى لهم بموضوعات معينة ، ومما يدل عـلى ذلك أن فكرة الأنموذج لابن رشيق كانت فى نظر بعض الأدباء من توجيه شيخه الحصرى لأنه كان صاحب البداية عندما أخذ يعمل بالتأليف عن الشعراء(١١) •

---

(٨) طبع هذا الكتاب بمصر فى مطبعة الخانجى سنة ١٩٢٦م بعنوان (أعلام الكلام) •

(٩) المختار من شعر بشار اختيار الخالديين وشرح أبى طاهر التجيبى

(١٠) انظر : تاج العروس للزبيـدى ٣/١٤٥ مادة (حصر) ط الخيرية بمصر ١٣٠٦هـ •

(١١) انظر : حياة القـيروان للدكتور عبد الرحمن ياغى ص ١٦٣ ط دار الثقافة ببيروت ١٩٦١م •

ولا ينكر أحد مدى تأثير الحصرى فى تلميذه ابن رشيق ، فقد كان ابن رشيق القيروانى يشهد مجالسه العلمية الأدبية هو وكثير من الشبان الذين أفادوا من حنكته الأدبية ومقدرته العلمية ونبوغه الفكرى وثقافته الرفيعة .

ولقد استطاع الحصرى عن طريق درسه لهؤلاء الشبان والطابع التعليمى لنتاجه الأدبى وأصالة نظريته ومنهجه فى دراسة الأدب وعلى وجه الخصوص أدب النصوص ، علاوة على دائرة معارفه الواسعة.. استطاع بكل ذلك أن يفرض نفسه على بيئة المغرب الاسلامى كلها ويؤثر فيها تأثيرا واضحا ملموسا ، ومما يدل على ذلك أن ابن حزم قد تأثر تأثرا ملحوظا بكتابه (المصون فى سر الهوى المكنون) عندما ألف كتابه المشهور (طوق الحمامة) ، وذلك فى كثير من مادة الكتاب وفصوله المختلفة .

ومن الفنون الأدبية التى أعجب بها الحصرى وعكف على دراستها وتذوقها (فن المقامة) التى عرفت عند أدباء المشرق ، وكان له الفضل فى تعلم الأدباء المغاربة لهذا الفن الأدبى الرفيع ، ولم يلبث هذا الفن أن درس بعناية من أحد تلاميذ الحصرى وهو ابن شرف القيروانى .

ونراه ينتهج نهج بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ورسائله ، وذلك فيما كتب فى (زهر الآداب) ، (جمع الجواهر) ، (المصون فى سر الهوى المكنون) فهو يضمن نثره فى كثير من الأحيان شعراء من نظمه أو يقتبسه من غيره ، ونراه يحاكى اسلوب بديع الزمان من حيث قصر الفواصل فى السجع وترادف الأمثال وتوليدها ، وهذا يدل على تنوع ثقافته وتأثره بالهمذانى وغيره من أدباء المشرق فى القرن الرابع الهجرى .

وعلى العموم فقد كان الحصرى موسوعة علمية أدبية قرأ الأدب والشعر والنقد ، وعكف على التراث الأدبى القديم ، وأعجب بأدب

المحدثين من أدباء المشرق ، وأخذ من كل العلوم العقلية حظا وافرا ، ولقد هضم هذه العلوم والمعارف كلها ، وغذاها بموهبته وذوقه الخاص ، فكونت منه شخصية أدبية فذة لها تأثيرها الواضح والبراز فى الأدب العربى ونقده حتى وقتنا هذا ، فجزاه الله عن اللغة العربية وآدابها وطلابها خير الجزاء •

الحصرى الشاعر :

يذكر ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) أن للحصرى ديوانا من الشعر(١٢) جمع شعره فيه ، ولكنه فقد فلم يصل الينا •

وقد أوردت بعض كتب التراث الأدبى شيئا من شعر الحصرى، وذلك ككتاب (شعراء القيروان من أنموذج الزمان) لتلميذه ابن رشيق القيروانى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، والوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى ، والذخيرة لابن بسام ، بدائع البدائة لابن ظافر الأزدى ، المختار من شعر بشار الذى شرحه تلميذه أبو طاهر التجيبى ، كما ورد كثير من أشعاره فى كتابيه (المصون فى سر الهوى المكنون) ، (جمع الجواهر) •

ولقد كان الحصرى من شعراء عصره الذين كان لهم موهبة متأصلة فى قرض الشعر ونظمه ، وساعده على نمو هذه الموهبة وصقلها ما درسه من الشعر العربى فى مختلف عصوره وتنوع أغراضه،ولقد اعتمد فى تكوين شاعريته على وفرة محفوظه ومقروئه من الشعر العربى الرصين ، فانضم الى موكب شعراء القيروان وخاصة تجربة الشعر من أوسع أبوابها ، ونظم فى كثير من الأغراض الشعرية وبرع فى كثير

---

(١٢) وفيات الأعيان ١/٥٤ ط دار صادر بيروت •

منها ، حتى ان تلميذه ابن رشيق القيروانى ليعده من الشعراء النقاد فى صره(١٣) .

ولقد كان بعض شعر الحصرى تعبيرا عن خواطره الذاتية ومشاعره الجياشة واحساسه الصادق ، وكان فى بعض أغراضه الشعرية يصل الى درجة فحول الشعراء الذين يشار اليهم بالبنان ، وأحيانا تفتر عاطفته فى بعض الأغراض فيكون شعره هزيلا ضعيفا ، كما انه عرف بقصر نفسه الشعرى ، فكثير من شعره لا يتعدى المقطوعات الى القصائد الا فى القليل النادر .

ولقد أشاد النقاد القدامى والمحدثين بشعره ، ولقد استأثر عندهم ببعض اللفتات الشعرية والبراعة الفنية التى تبين منزلته الشعرية ومكانته الفنية .

فهذا ابن الأثير الحلبى يعد من طبقة شعراء الخريدة مساويا للقاضى اجرجانى وابن سناء الملك والحيص بيص وعمارة اليمنى وغيرهم(١٤) .

وهذا ابن فضل الله العمرى يثنى عليه وعلى مكانته فى الأدب والشعر ، وينقل ثناء ابن بسام عليه فى كتابه (الذخيرة)(١٥) .

ولقد بالغ بعض هؤلاء النقاد فى الاشادة بشعر الحصرى خاصة ابن فضل الله العمرى وابن بسام ، وظهرا اعجابهما الشديد بشعر الحصرى وفنه الشعرى .

---

(١٣) انظر : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ص ١٨ (جمع زين العابدين السنوسى) .

(١٤) انظر : جوهر الكنز لنجم الدين بن الأثير الحلبى ٢/٣٠٦ تحقيق د. محمد زغلول سلام ط منشأة المعارف ١٩٧٤ .

(١٥) مخطوطة مسالك الأبصار ج ١٧ الورقة ٨٧ .

ونرى بعض المحدثين أيضا يشـبدون بشاعرية الحصرى ، فهذا هو الشـيخ عبد العـزيز البشرى يـرى أنه من المبـرزين فى قرض الشـعر(١٦) ، وهـذا (بروكلمان) يعده أول شـعراء شمال أفريقية وصقلية(١٧) .

واذا رجعنا الى شعر الحصرى الذى وصل الينا فنجد معظمه فى مجال (الغزل) ، وكثير منه على هيئة المقطعات التى لا تتجاوز الأبيات العشرة ، بل ربما تكون المقطوعة فى بيتين أو ثلاثة أو خمسة أبيات . ومنها ما يكون تعبيرا عن عاطفة صـادقة واحساس مرهف وشـعور فياض بالحب والهوى ، ومنها ما يكون وصفا حسيا للمحبوب وما فيه من جمال وسحر ورقة وهيف ودلال .

فمن شعره العاطفى المعبر عن احساسه الصادق وشعوره الفياض قوله(١٨) :

اذا اسـتوحشت نفسى من الأنس بالورى
خلـوت أنـاجى فيك وهـم جنـان
أروح ببـرد الذكـر أطفـىء غلـة
سـعت فى شـتات الصـبر بعد تدان
فيفضى جفـون الفكـر عنـك مهـابتى
ويحبس عن وهـم الضـمير عنانى
ويحجب أغضـائى لحاظ خـواطرى
ويخـرس عن ذكـراك نطق لسـانى

(١٦) انظر مقدمة البشرى لكتاب الحصرى (جمع الجواهر) .
(١٧) انظر تاريخ الأدب لعربيا لبروكلمان ٥/١٠٥ .
(١٨) مخطوطة المصون فى سر الهوى المكنون لأبى اسحاق الحصرى الورقة ٢٥ .

كأن الهـــوى أفضى اليـــك بثقلـــه
فحملـنى مـا حمـــل الثقـــلان
ومـــن بلغـــت منه المحبـــة حدهـــا
رأى نطقـــه ضربا مـــن الهـــذيان

ولاشك فى أن الشاعر فى هذه الأبيات كان صادق العاطفة ، ونحن نحس بهذا الصدق فى أدائه وتعبيره وتصويره ، ولهذه الأبيات وقـــع مؤثر على النفوس ، فهى تجسم صورة المحب العاشق الولهان الذى أضناه الحب وأسقمه الهوى ، وتحمل فى سبيل ذلك صنوف العـــذاب والهوان ، والحرمان .

ونلاحظ تأثره بأبى تمام فى ســـوق هذه الاستعارات المصـــنوعة خاصة فى البيتين الثالث والرابع .

ونراه يتحدث فى مقطوعة أخرى عن خوالج المحب الذى برح به الهوى وهو يخفيه بين جوانحه صيانة لمن يحب ويهوى ، ويحرص على كتمان هذا الحب ، وما ذلك الا لخوفه على محبوبه وحفاظه على العهد القديم بينهما ، وفى هذا المعنى يقول(١٩) :

كتمت الهـــوى عمن أحب صـــيانة
بمكنـــون حب شـــفنى وبرانى
وأيقنت اشـــفاقا على من أحبه
فأمسكت عن شكوى الغرام عنانى
تملك ســـلطان التخـــوف مهجتى
فأمسكنى عن أن يبـــوح لســـانى

ويبدو أن هذه المعـــانى قد دارت فى كثير من شعره العاطفى ،

(١٩) مخطوطة المصون فى سر الهوى المكنون للحصرى الورقة٦٩ .

وكلها تحمل نبضات قلب متيم عاشق ولهان ، وتتميز بصدق فى التعبير والتصوير ورقة فى المشاعر والأحاسيس وكان لعاطفته الصادقة أثر فعال فى الاجادة الفنية والتعبيرية ، وما كان حكمنا عليها بالاجادة والبراعة الا لقوة تأثيرها فى نفس السامع والقارىء وما احتوته من عبارات دالة وألفاظ معبرة وصور بارعة ، وما اتصفت به من خلو من التكلف والتعمل ، اذ هى تصدر عن عاطفة صادقة وطبع سليم وموهبة أصيلة وذوق رفيع •

ومن أشعاره الدالة على عاطفته الصادقة قوله(٢٠) :

كتمت هواك حتى عيل صبرى
وأدنتنى مكاتمتى برمسى
فلم أقدر على اخفاء حال
يحول بها الأسى دون التأسى
وحبك مالك لحظى ولفظى
واظهارى واضمارى وحسى
فان انطق ففيك جميع لفظى
وان أصممت ففيك حديث نفسى

ويكفى الشاعر روعة ما فى البيت الأخير من جميل التقسيم وحسن الأداء ورقة المعنى •

ونراه يصف الحرمان والبعد عن الحبيب ، فقد جفاه النوم وظل مسهدا فى جوف الليل يرعى النجوم وهو طويل الأسى قصير التصبر ، ويظل يتراءى له طيف الحبيبة يلوح له حتى تبدو بوادر الصباح وهو على حالته تلك •

---

(٢٠) معجم الأدباء ٢/٩٥ وما بعدها ، شعراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيق ص١٨ •

وفى ذلك يقول(٢١) :

فكم طـول ليل بت أرعى نجـومه
طـويل الأسى فيه قصير التصـبر
اذ هى غـابت أوحشـتنى كأننى
أنست لسمارى فهوم سمرى(٢٢)
وتبعث من بين السحاب اذا انفرى
لهـا كثغـور الأقحوان المنـور
الى أن أرى أولى الصـباح كأنه
وشـائع فى أطـراف برد محبر

ومع هذا الشعر العـاطفى بما فيه من حرارة وصـدق وتجربة شعرية واضحة ، وعفة فى القول ونقاء فى المشاعر والأحاسيس نرى للشاعر ـ ككل الشعراء ـ غزل حسى يصـف فيه القدود والخـدود والنهود ، ومن ذلك قوله(٢٣) :

يا صـاحبى بمهجتى خمصانة
مالت مميل الغصن من أعطافها
فى الصـدر منها للطعـان أسنة
ما أشرعت الا لمنع قطـافها
ان تنكـرا قتلى بهـا فتأملا
تريا دمى قـد جف فى أطرافها

---

(٢١) مخطوطة مسـالك الأبصـار لابن فضل الله العمرى جـ ١٧ ورقة ٨٨ .

(٢٢) هوم سمرى : أى غشاهم النعاس ، والسمر هم السمار .

(٢٣) تحفة العروس التجانى ص ١٣٦ ط مصر ١٣٠١هـ .

وفى هذه الأبيات خيـال خصب وتصـوير دقيق ساعده على ذلك شـاعريته الملهمة وخيـاله الدقيق وتصـويره الرائع ودقة ملاحظته الواضحة .

ويتصل بغزله الحسى هذه الأبيات التى يصف فيها سحر العيون وجمال الوجنتين ورقتهما مع وجه كالبدر وقد كالغصن الرطيب ، ومن خلالها يرسم لوحة فنية لهذا الحبيب الذى شـغفه حبا وسلب عقلـه وفؤاده ، ونحس ونحن نقرأ هذه الأبيات مدى توفيق الشاعر فى رسم هذه الصورة الحية التى تتميز بالحركة والحياة والألوان والظـلال ، والتى نلمسها فى قوله(٢٤) :

عليـل طـرف سقيت خمـرا
من مقليتـه فمت سـكرا
ترقرقت وجنتـاه مـاء
مـازج ذبـه العقيق درا
يحـرك الدل منـه غصـنا
ويطلـع الحسن منه بـدرا
قـد نم مسـك بعارضـيه
خلـف للعاشـقين عـذرا

وانها لصورة رفيعة أبدع فيها الشاعر وصورها بحاسة فنيـة أبرزتها فى صورة حسـية ملموسة بلا تكلف ولا تصنع ولا كـد ذهن ولا خاطر ، وهذا يدل على شاعريته المطبوعة وموهبته الواضحة وأخذه بالفن الشعرى الدقيق .

---

(٢٤) مخطوطة : مسالك الأبصار لابن فضـل الله العمرى جـ ١٧ ورقة ٨٨ .

وللحصرى فى مجـال (الوصف) براعـة لا تنكر ، فهو يصـور الموصوف فى صورة حسية مجسمة وكأنه ماثل للعين ، ونرى من خلال شعره الوصفى لوحات فنية أبـدع فى تصويرها بريشة فنـان بارع حاذق .. والشاعر البارع هو الذى يجعل الموصوف ماثلا للعيان بكل ما فيه من حياة وحركة وألوان وظلال ، وقد وفق الحصرى الى حـد كبير فى ذلك .. من صور الوصف عنده قوله يصف (الياسمين)(٢٥) :

خليلى هيا وانقضـا عنكما الكرى
وقـوما الى روض ونشـر عبيـق
فقـد راح رأس الياسـمين منورا
كأقـراط در قمعـت بعقيـق
يميـل على ضـعف الغصـون كأنما
لـه حالتـا ذى غشـية ومفيق
اذا الريح أدنتـه الى الأرض خلتـه
نسـيم جنـوب ضمخت بخلـوق

ونلاحظ فى هذه الأبيات غرامه بالبديع(٢٦) وتأثره بابن المعتـز العباسى وانتهاجه نهجه فى حشر الصور الحسـية التى تبرز الصـورة وتوضحها وتجسمها .

ولم يكتف الشاعر بوصف الحسـيات ، ولكنه وصف الأشـياء المعنوية التى لا ترى ولا تحس ، ومن ذلك قوله يصف « معانى حديث الأليفين »(٢٧) :

---

(٢٥) مجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ١١٩ ط تونس ١٩٦٨ .

(٢٦) كان البديع فى عصر الحصرى يشـمل الاسـتعارة والتشبيه ودقائق الأوصاف علاوة على المحسنات اللفظية التى تزين الكلام وتوشيه

(٢٧) مخطوطة : المصون فى سر الهوى المكنون ورقة ٤ .

ومعان رصعت ببديع صيغ فى جيد الزمان سخابا
موهت أستارها بنضار جال ماء الحسن فيه فذابا

وعلى الرغم من هذه الصنعة التى تبدو فى البيتين ، ولكن الصورة لا تخلو من طرافة وجودة فى التعبير والتصوير .

وللشاعر مجالات أخرى فى شعره ، فله بعض الحكم والمواعظ ، وله بعض الاخوانيات ، كما كان ينظم أفكاره التى تعرض له فى تأليفه ، أو يسوق الفكاهة فى أبيات من شعره ليروح بها عن الناس .

ولم يعرف عن الشاعر أنه قصد بيوت الحكام والأمراء طلبا للتكسب بالشعر كما كان يفعل بعض الشعراء فى عصره كابن رشيق وابن شرف وغيرهما ، بل كان شاعرنا عفيفا معتزا بنفسه لا يذل نفسه ولا شعره من أجل المال وعرض الحياة الدنيا ، كيف لا ، وهو يعجب من هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا ، وتعالوا على الناس ، ونسوا أن نهايتهم الموت ، ومن ذلك قوله(٢٨) :

أرى أولاد آدم أبطرتهم حظوظهم من الدنيا الدنيه
فلم بطروا وأولهم منى اذا افتخروا وآخرهم منيه

آثاره الأدبية :

لقد ترك أبو اسحاق الحصرى عدة من الكتب الأدبية النافعة التى أثرت المكتبة العربية بثروة من الأدب الرفيع والنقد الدقيق الذى يعتمد على تحكيم الذوق السليم مع الأخذ بالمقاييس النقدية التى عكف عليها شطرا من حياته .

---

(٢٨) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم لصلاح الدين الصفدى ١٠٦/١ ط المكتبة العلمية بيروت .

وهذه المؤلفات التى تركها أبو اسحاق الحصرى تدل قيمتها الأدبية على صحة ما شهد له به القدماء من التفوق الأدبى والعلمى وتأثيره فى عصره وفى العصور التالية له •

ويمكن أن نحدد الآثار الأدبية التى تركهـا أبو اسحاق الحصرى فيما يلى(٢٩) :

١ ــ زهر الآداب وثمر الألباب : وهو موسوعة أدبية شملت كثيرا من الموضوعات الأدبيـة والنقدية ، ولقد حظى هذا الكتـاب باهتمام الباحثين والأدباء فأقبلوا عليه محققين وباحثين ودارسين لمادة الكتاب الأدبية النقدية ، ولقد تأثر فيه الحصرى بما كتبه أدباء المشرق من أمثال (البيان والتبيين) للجاحظ وسحر البلاغة للثعالبى ، فقه اللغة للثعالبى أيضا ، وأخبار أبى تمام للصولى ونقد الشعر لقدامة بن جعفر وطبقات الشعراء لابن سلام الجمحى وغير ذلك •

٢ ــ نور الطرف ونور الظرف (٣٠) : وهو اختصار لكتابه الذائع الصيت « زهر الآداب » كما ذكر ياقوت الحموى فى كتـابه (معجم الأدباء) ، وأول من أشار الى هذا الكتاب ابن رشيق القيروانى فى كتابه (شعراء القيروان من أنموذج الزمان) •

---

(٢٩) انظر فى ذلك وفيات الأعيان ٥٤/١ ، معجم الأدباء ٩٧/٢ ، شعراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيق ص ١٩ ، كشف الظنون لحاجى خليفـة ١٩٨٣/٢ الطبعـة الثـالثة ١٩٥٧ ، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٦/٥ ط دار المعـارف بمصر ، والبلاط الأدبى للمعز بن باديس للدكتور / عبده عبد العزيز قلقية ص ٧٩ وما بعدها ط جامعة الملك سعود الرياض ١٩٨٣ •

(٣٠) بضم النون فى كلمة نور الأولى وفتحها فى كلمة نور الثانية

وما زال هذا الكتاب مخطوطا حتى الآن ، وتوجد منه نسخة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا .

٣ ــ المصون فى سر الهوى المكنون : وهو عبارة عن حديث بين عاشقين وفيه كثير من الملح والطرائف والآداب .. وبعد دراسة تحليلية لعاطفة الحب ، وأحواله ، وفيه كثير من أخبار العشاق وأشعارهم .

وقد تأثر به ابن حزم حين ألف كتابه المشهور « طوق الحمامة » .

وقد أشار كثير من المؤرخين والأدباء الى هذا الكتاب وأولهم ابن رشيق فى كتابه (الأنموذج) وقد حققه وقدم له الدكتور محمد عارف وطبع بمطبعة الأمانة سنة ١٩٨٧ .

وتوجد منه نسخة بمكتبة (ليدن) بهولندة ، ونسخة أخرى بالمدينة المنورة .

٤ ــ جمع الجواهر فى الملح والنوادر : وهذا الكتاب مطبوع بمصر عام ١٣٥٣ هـ وقدم له الشيخ عبد العزيز البشرى ، وقام بتحقيقه وطبعه محمد أمين الخانجى ، ويرى الشيخ البشرى أنه ذيل لكتاب (زهر الآداب) ، وعلل ذلك بأن الحصرى فى كتاب زهر الآداب تحاشى جانب المجون والملح والنوادر وقد استوفاها فى (جمع الجواهر) فكان هذا الكتاب ذيلا لزهر الآداب .

ولكن الرأى الصائب أنه كتاب مستقل بنفسه غير ملحق بغيره ، ومن عنوانه ندرك أنه قد جمع فيه جملة من الملح والنوادر ، وربما رجع فى بعض معلوماته الى كتابه (زهر الآداب) .

٥ ــ تأليف عن طبقات الشعراء :

ولقد أخبر بهذا المؤلف الذى لم يتم تلميذه ابن رشيق القيروانى فى كتابه (الأنموذج) حيث يقول : « وقد كان أخذ فى عمل طبقات الشعراء على ترتيب الأسنان ، وكنت أصغر القوم سنا ، فصنعت :

رفقا أبا اسحـــاق بالعالم
حصلت فى أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق منذوحة
فضـــل ابليس على آدم

فلما بلغه البيتان أمسك عنه واعتذر منه ، وسدد عليه باب الفكرة ولم يصنع شيئا •

ويرى ياقوت أن أبا اسحاق الحصرى هم بتأليف هذا الكتاب حول شعراء القيروان فبلغ ذلك ابن رشيق وكان ما كان منه (٣١) •

ولكن ما ذكره ابن رشيق أصح مما قاله ياقوت لأنه عاصر الحصرى وعاش فى زمانه فهو أعلم بأحواله من غيره •

٦ ــ ديوان شعر : لم يصل الينا ، وقد أشار اليه ابن خلكان وغيره وما جمع من شعره كان مبثوثا فى كتب التراث الأدبى كما أشرنا الى ذلك من قبل عند حديثنا عن شعر الحصرى •

٧ ــ طيبات الأغانى ومطربات القيان : وقد أشار الى هذا الكتاب الذى لم يصل الينا (٣٢) مؤلفه الحصرى فى كتابه (جمع الجواهر) وأورد قطعة منه فى ثنايا الكتاب ، ولقد عرف الحصرى بولوعه بالأغانى وحبه للغناء ، ومن ثم لا يستبعد أن يكتب عن الغنـــاء ويتحـــدث عن المغنيات ويجمع الأشعار التى تناسب الغناء ، ولكن الكتاب فقد ولم يعرف أحد عن فحواه شيئا الا ما أشار اليه الحصرى فى كتابه (جمع الجواهر) •

---

(٣١) انظر : الأنموذج لابن رشيق ص ١٩ وما بعدها ، ومعجم الأدباء ٢/٩٦ وما بعدها •

(٣٢) انظر : البلاط الأدبى للمعز بن باديس للدكتور عبده قلقيلة ص ٨٠ ط جامعة الملك سعود الرياض ١٩٨٣م •

ولا شك فى أن هذه الكتب التى تركها الحصرى بما فيها من علم وأدب يعد معظمها من الكتب المرموقة التى حظيت باهتمام الباحثين ، ووجد فيها طلاب الأدب والعلم معينا لا ينضب وزادا لهم على طريق العلم والمعرفة والأدب الرفيع .

العوامل المؤثرة فى شخصيته :

شخصية أبى اسحاق الحصرى شخصية علمية أدبية عرفت بالاتزان والحكمة ، ويمكن أن يطلق عليها « شخصية المعلم » الذى يستطيع بقوة تأثيره أن يؤثر فى تلاميذه ، وأن يصنع منهم علماء أجلاء وأدباء بلغاء وشعراء فصحاء ،ولقد أثر الحصرى فى عصره وتلاميذه ، فدرسوا على يديه أصول الشعر ومقاييسه النقدية ، وغذاهم بفكره الأدبى وحاسته الفنية وذوقه البلاغى والنقدى ، وثقفهم بثقافة رفيعة ووجههم الوجهة الصالحة ، ومن ثم وجه الأنظار الى أدباء المغرب بعد أن كانت الأنظار متجهة تماما الى أدباء المشرق قبل ذلك .

وشخصية مرموقة كشخصية الحصرى الذى كان له الأثر الفعال فى نهضة الأدب فى هذه البيئة ، تدعو الباحث الى الكشف عن العوامل التى أثرت فى شخصيته ، والتى كان لها الأثر القوى فى تكوينها تكوينا أدبيا علميا متكاملا .

ويمكن أن نقف على المؤثرات العامة فى تكوين هذه الشخصية من خلال دراستنا لتاريخه ومنهجه الأدبى وبيئته العلمية وصفاته النفسية والخلقية ، ويمكن أن نحددها فى العوامل الآتية :

١ ــ البيئة العلمية التى عاش فيها أبو اسحاق الحصرى وتأثر بها أيما تأثير ، وهى بيئة (القيروان) بما عرفت من ازدهار علمى وتفوق أدبى ، وضمها لكثير من العلماء الأعلام الذين عاشوا فى ربوعها ، ونشروا العلم فيها ، ومن ثم فقد أصبحت مدينة القيروان ذات مكانة مرموقة

وسمعة علمية وحاضرة من حواضر ديار الاسلام ، وعرفت بالمكتبات الكبيرة والجوامع والمدارس والحلقات العلمية التى أقبل عليها طلاب العلم من كل مكان .

٢ ــ ثقافته العربية الخالصة التى جناها من أساتذة أجلاء واطلاع واسع وقراءة كثيرة فى كل العلوم والمعارف خاصة علوم اللغة وآدابها ودقائقها وفنونها المتنوعة ، وقد عرف الحصرى بجلده وصبره وقدرته على الحفظ والتدوين وجمع شتات الموضوعات فى دأب وصبر وعزيمة لا تلين .

٣ ــ تأثره القوى بما كتبه المشارقة من الأدباء والنقاد ، فقد كان معجبا بكل ما كتبه هؤلاء الأدباء من دراسات أدبية ونقدية ، وقد عكف على مؤلفاتهم يحفظ ما يروق له ويدون ما تقع عليه عينه ، وكان لهذه المؤلفات أثر كبير فى تكوين شخصيته الأدبية حتى انطبع بطابع أدباء المشرق وسار على منوالهم ، وحبب لتلاميذه أن ينهلوا من أدب المشارقة وأن ينتهجوا نهجهم ، فكان همزة الوصل بين المشارقة وبين تلاميذه الذين كان لهم دور بارز فى النهضة الأدبية فى هذه البقاع .

٤ ــ كان للصفات النفسية والخلقية التى اتصف بها الحصرى أثر واضح فى بناء شخصيته ، فهو أريب لبيب وله ذوقه الخاص فى فهم الشعر ونقده ، وظهر ذلك فى أسلوبه الأدبى فهو نافذ الذوق بليغ الاختيار يلون أسلوبه بحذق ومهارة ، فهو يتبع المقامة الظريفة بالقصيدة البارعة ، ويلحق النادرة الطريفة بالخطاب القاطع ، فيتجول بقارئه من فن الى فن ويستدرجه من حديث الى حديث دون أن يتداخله الملل (٣٣) أو يتسرب اليه السأم .

---

(٣٣) انظر : مقدمة الشيخ عبد العزيز البشرى لكتاب (جمع الجواهر) .

وهذه صفه الأديب الحاذق والكاتب البارع الذى ينفذ بمقدرته البيانية الى أعماق القارىء وقلبه فيستولى على مشاعره وأحاسيسه .

كما كان لخلق التدين والعفة والقناعة والاعتزاز بالنفس أثر واضح فى بعده عن السفاسف والمجون الذى وقع فيه غيره ، كما كان معتزا بنفسه وعلمه وأدبه فلم يمتهن شعره وأدبه فى سبيل كسب المال والاقبال على عرض الحياة ومتاعها الزائل ، كما كان يفعل كثير من الأدباء والشعراء فى عصره .

كتاب (زهر الآداب وثمر الألباب) للحصرى

١ ــ موضوع الكتاب ومادته :

لقد أشار أبو اسحاق الحصرى الى السبب الذى دعاه الى تأليف كتابه المشهور (زهر الآداب وثمر الألباب) حيث يقول فى مقدمة الكتاب :

« كان السبب الذى دعانى الى تأليفه ، وندبنى الى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبى الفضل العباس بن سليمان ــ أطال الله مدته ، وأدام نعمته فى الأدب ، وانفاق عمره فى الطلب وماله فى الكتب ــ ان اجتهاده فى ذلك حمله على أن ارتحل الى المشرق بسببها ، وأغمض فى طلبها باذلا فى ذلك ماله مستعذبا فيه تعبه الى أن أورد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة وسألنى أن أجمع له من مختارها كتابا يكتفى به عن جملتها ، وأضيف الى ذلك من كلام المتقدمين ما قاربه وقارنه وشابهه وماثله ، فسارعت الى مراده ، وأعنته على اجتهاده وألفت له هذا الكتاب » (٣٤) .

---

(٣٤) زهر الآداب وثمر الألباب لأبى اسحاق الحصرى ٢/١ ومابعدها تحقيق الأستاذ على البجاوى ط دار احياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) القاهرة ١٩٥٣م .

ويبدو لنا من هذا القول أن أبا اسحاق الحصرى قد جمع فى هذا الكتاب ألوانا شتى من الأدب شعره ونثره ، وانتقى هذه المادة العلمية من مصادر النصوص التى اختارها أبو الفضل العباس بن سليمان (٣٥) من كتب المشارقة ككتب الثعالبى مثل فقه اللغة وسحر البلاغة ، ومما كتبه الجاحظ كالبيان والتبيين وغيره ، ومما كتبه الصولى فى كتابه (أخبار أبى تمام) • وكذا ما كتبه قدامه بن جعفر وابن سلام الجمحى وبديع الزمان الهمذانى وثعلب فى مجالسه وما كتبه النقاد الآخرون من أمثال أبى عبيدة معمر بن المثنى وابن طباطبا العلوى والحاتمى وغيرهم، بالاضافة الى دواوين الشعراء الذين عرض لهم •

ونرى الحصرى يصرح أحيانا بأسماء من نقل عنهم ، وأحيانا لا يصرح بذلك ، ولكنه يلمح من بعيد الى من أفاد منه واستسقى منه هذه النصوص التى يعرضها أو الآراء التى يذكرها فى كتابه « زهر الآداب » •

والكتاب موسوعة أدبية جمع فيه الحصرى ألوانا شتى من فنون الأدب والنقد،فقد اختار فى هذا الكتاب أجمل الروائع الأدبية والطرائف الشيقة والتراجم المفيدة والأخبار الممتعة والأشعار الخالدة والأمثال السائرة ، واستطاع الحصرى أن ينقلنا من فن الى فن فى مهارة وحذق واتقان ساعده على ذلك طبع سليم وذوق بارع واختيار دقيق وثروة علمية أدبية ممتازة ، ولا شك فى هذا فهو — كما قال تلميذه ابن رشيق — عليم بتنزيل الكلام وتفضيل النظام ، وأن عنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء(٣٦) •

---

(٣٥) هو أحد رؤساء الكتاب بالقيروان ، وكان من كبار الأدباء فى عصره •

(٣٦) شعراء القيروان من أنموذج الزمان لابن رشيق القيروانى ص ١٨ •

ولقد أشار الحصرى فى مقدمة الكتاب الى موضوعه وتنوع مادته الأدبية حيث يقول :

« وهو كتاب يتصرف فيه الناظر من نثره الى شعره ، ومطبوعه الى موضوعه ، ومحاورته الى مفاخرته ، ومناقلته الى مساجلته ، وخطابه المبهت الى جوابه المسكت ، وتشبيهاته المصيبة الى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه الباهرة الى أمثاله السائرة ، وجده المعجب الى هزله المطرب ، وجزله الرائع الى رقيقه البارع » (٣٧) .

ولقد سلك الحصرى فى كتابه (زهر الآداب) طريقة الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) وطريقة أبى على القالى فى كتابه (النوادر) ، وقد جمع فيه ما يمتع القارىء ويدخل على قلبه البهجة والسعادة ، ويروح عنه فى وقت التعب ، فلا يحس بالملل ولا السأم ، وأضاف الى ما جمعه أبو الفضل بن سليمان كثيرا من كلام المتقدمين وكلام أهل عصره وأخبارهم وأدبهم .

وكان للحصرى دور هام فى تفسير النصوص وتحليل بعض جوانبها الأدبية بأسلوبه الأدبى الرشيق .

وكتاب (زهر الآداب) فى الحقيقة يدل على ذوق صاحبه الرقيق واطلاعه على أمهات الكتب وكثرة محفوظه ومقروئه ، كما يدل على دقة اختياره لروائع الجمل والرسائل البليغة والأمثال السائرة والأخبار الأدبية الطريفة والأحكام النقدية السديدة .

ولقد انفرد الحصرى فى هذا الكتاب بحديث أدبى دقيق عن (فن المقامة) فى الأدب العربى ، وأورد فى كتابه كثيرا من مقامات البديع

---

(٣٧) زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى تحقيق البجاوى ١/١ .

الهمذانى ، ولقد توصل فى كتابه هذا الى أن رائد فن المقامة هو ابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ (٣٨) لا البديع الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ • كما تناقله بعض النقاد من أن فكرة المقامات ترجع الى البديع الهمذانى ، ومن ثم فالبديع الهمذانى عند الحصرى تابع لابن دريد فى هذا الفن الأدبى ، وأن له فضل تطويرها ونسجها فى قالب فنى دقيق •

ولقد اشتمل الكتاب على كثير من القضايا النقدية التى عرض لها المتقدمون من النقاد ، وأفاد منها الحصرى ، ولكنها لم يعرضها فى مباحث مستقلة ، بل يذكرها فى ثنايا الموضوعات المتنوعة ، ويستطيع القارىء أن يستنبطها من خلال قراءته للكتاب •

ونراه يحتفل بالسرقات الأدبية ، ويكثر من ذكرها ، وينبه عليها ، كما يهتم بالموازنات الأدبية ، والبديع ، ويتحدث عن قضية اللفظ والمعنى والطبع والصنعة وغير ذلك من القضايا النقدية التى سجلها الحصرى صراحة أو يلحظها القارىء ويستخلصها من كلامه وتعليقاته ، وكان يمزج فى حديثه النقدى بين النقد الذاتى التأثرى وبين النقد الموضوعى ، وهو فى هذا المجال قد تأثر بما سبقه ، وكان له ذوقه الخاص الذى يدل على طبعه السليم وموهبته المتأصلة وثقافته الرفيعة وذكائه اللماح ونظراته الصائبة وملاحظاته الدقيقة •

٢ ــ أهمية الكتاب ومنزلته الأدبية :

لقد حظى هذا الكتاب بأهمية كبيرة منذ أن ألفه الحصرى (٣٩) حتى عصرنا هذا ، فقد أقبل عليه الأدباء ينهلون من ورده ويتنقلون بين أفنانه

---

(٣٨) انظر : زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى ١/٢٦١ ومابعدها

(٣٩) فلقد اختصره بعض الأدباء كالامام أبى الحسن على بن محمد ابن برى وأسماه (اقتطاف واجتناء الثمر) وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية •

وأغصانه ، ويستمدون منه رائع الشعر وحلو الأدب وجميل القول ، وذلك بما حواه من ألوان كثيرة ومتنوعة من فنون الأدب فى عصوره المختلفة ، ويكفى أنه نقل أدب المشارقة الى بيئة القيروان ، وأدخل اليها فن المقامة التى ازدهرت فيما بعد على يد الأدباء الذين تتلمذوا عليه فى حياته .

والكتاب يعد من مصادر التراث الأدبى التى يرجع اليها الباحثون والأبناء والكتاب فى كل جيل وقبيل ، وقد يكون هذا الكتاب المصدر الوحيد لنصوص لم تنشر مصادرها حتى الآن لفقدها وضياعها مثل كتاب (مثالب العرب) لأبى عبيده بن المثنى (٤٠) وككتاب الشعر للناشىء (٤١) وكتاب عن شعر الميكالى لعمر بن على المطوعى (٤٢) وغير ذلك .

وترجع أهمية الكتاب ومنزلته الأدبية الى أنه مصدر مهم يشتمل على شعر شعراء لا توجد لهم دواوين كأبى العباس الناشىء وعبد الكريم النهشلى وغيرهما ، كما يضم زيادات لكثير من الشعراء لا توجد فى دواوينهم الشعرية .

وهو سجل دقيق وأمين لنصوص أدبية اختارها من كلام أهل عصره .

ويكفى الكتاب فخرا أن مؤلفه أحد رواد النهضة الأدبية فى العصر الصنهاجى ، وهم : أبو اسحاق الحصرى وعبد الكريم النهشلى وابن رشيق القيروانى والقزاز وابن شرف القيروانى ، فعلى كواهلهم ارتقى الأدب فى هذا العصر وازدهر فى كل فنونه وألوانه .

---

(٤٠) انظر : زهر الآداب للحصرى ٤٧/١ تحقيق البجاوى .
(٤١) انظر : زهر الآداب للحصرى ٦٣١/٢ .
(٤٢) انظر : زهر الآداب ١٣٣/١ .

ولو عكف من يريد الأدب على هذا الكتاب المتنوع الشامل لكفاه فى حفظ الجيد من النثر والنظم ولساعده على كسب ملكة الأدب ، بما حواه من فنون الأدب المختلفة التى اختارها الحصرى بذوقه الرفيع وملكته المتأصلة وثقافته الواسعة وخبرته الطويلة فى هذا الميدان الفسيح ، وعرضها بأسلوبه الرائع الرشيق .

وما زال هذا الكتاب القيم معينا لا ينضب لمحبى الأدب ، والباحثين والدارسين حتى يومنا هذا ، ويحظى بأهمية كبيرة فى جميع الأوساط الأدبية والعلمية ، مما يدل على منزلته الرفيعة ومكانته السامقة بين كتب التراث الأدبى العريق .

٣ ــ اسلوب الكاتب وطريقته :

لقد كان الحصرى همزة الوصل ــ كما أشرنا الى ذلك من قبل ــ بين أدب المشارقة وأدباء عصره ، فقد نقل اليهم أدب المشرق ، وأسلوب الأدباء فى المشرق وأفكارهم وألوان أدبهم ، واستطاع أن ينهض هو ومجموعة من الأدباء بالأدب فى العصر الصنهاجى ، ولقد كان أسلوب الحصرى وطريقته مواكبة لأسلوب العصر كثيرا من امتزاج الترسل مع السجع الذى يجمع بين دقة الصنع ورقة الطبع ، ولقد كانت طريقته فى هذا الكتاب تتلخص فى ادخال المتعة الذهنية والروحية بقدرته على التلوين لفنون الأدب شعره ونثره ، فى احكام متقن وذكاء بارع وحاسة فنية صادقة وذوق أدبى رفيع .

والشىء الذى لا ينكر فى هذا الكتاب هو اختيار الكاتب لمادته العلمية والأدبية اختيارا دقيقا وعرضها بأسلوب شائق فى عبارة سلسة وبعد عن الألفاظ الوعرة والحوشية ، ولقد حرص على ذلك فى كتابه حتى ان ليتحاشى حوشى الأشعار وغريبها مما ورد فى الشعر الجاهلى ، حتى يقبل القراءعلى ما يعوضه فى الكتاب دون تعب ولا كد ذهن ولا اعمال خاطر .

ونستطيع فى ضوء ما ذكرنا أن نحدد أسلوب الحصرى وطريقته فيما يلى :

أولا : جمعه فى أسلوبه بين الترسل والسجع الذى يجمع بين دقة الصنع ورقة الطبع :

فالحصرى لا يلتزم بأسلوب واحد فى كتابه (زهر الآداب) ، فهو أحيانا ينتهج منهج الجاحظ وأضرابه فى الترسل دون حرص منه على السجع والمحسنات البديعية الأخرى ، فهو يسترسل فى المعانى والجمل القريبة من الجمل المترادفة على السليقة والطبع السليم ، ولقد شهد بذلك تلميذه ابن رشيق(٤٣) حينما حكم بأن شيخه الحصرى عليم بتنزيل الكلام وتفصيل النظام ، وأن عنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ورق رقة الهواء .

ونحن نجد هذا الترسل فى ثنايا كتابه (زهر الآداب) وذلك مثل قوله حين يتحدث عن الشاعر بشار بن برد : « وكان بشار أرق المحدثين ديباجة كلام ، وسمى أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعانى ونهج لهم سبيل البديع فاتبعوه » (٤٤) .

ومثل قوله حين يتحدث عن أبى حازم فيقول « وكان أبو حازم من فضلاء التابعين ، وله مقامات من الملوك ، وكلام محفوظ يدل على فضله وعقله » (٤٥) .

وأحيانا نرى الحصرى يلتزم بالسجع والمحسنات البديعية الأخرى كالجناس والطباق والازدواج ، وهو فى ذلك مترسم لخطى كتاب

---

(٤٣) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ص ١٨ .
(٤٤) زهر الآداب للحصرى ٤٢٢/١ .
(٤٥) زهر الآداب للحصرى ١٦٩/١ .

عصره وفى مقدمتهم بديع الزمان الهمذانى الذى أعجب به وأثنى على طريقته وأسلوبه وأورد كثيرا من رسائله ومقاماته فى هذا الكتاب •

ونرى سجعه أحيانا مستملحا مقبولا خالصا من شوائب الصنعة والتكلف ، والسجع المقبول ما صدر عن الطبع دون تكلف ، ومن ثم يكون حلية وزينة فى الكلام ، أما ما يعاب منه فهو السجع المتكلف المتصف بالغلو والاغراق •

وحين يلتزم الحصرى بالسجع ، فهو متأثر كل التأثير بأسلوب الكتاب فى القرن الرابع الهجرى من أمثال بديع الزمان والهمذانى والخوارزمى والثعالبى وغيرهم •

ويحكم كثير من النقاد والأدباء على أن سجع الحصرى يجمع بين دقة الصنع ورقة الطبع ، وقد استطاع بمهارته الفنية أن يجمع بينهما فى كثير من الأحكام والاتقان •

ونلاحظ هذا السجع من أول صفحة فى الكتاب حيث يقول فى المقدمة متحدثا عن منهجه الذى اختاره فى الكتاب « ولم أذهب فى هذا الاختيار الى مطولات الأخبار كأحاديث صعصعة بن صوحان وخالد بن صفوان ونظائرهما ، اذ كانت هذه أجمل وأسهل حفظا • وهو كتاب يتصرف فيه الناظر من نثره الى شعره ، ومطبوعه الى مصنوعه ، ومحاورته الى مفاخرته ، ومناقلته الى مساجلته ، وخطابه المبهت الى جوابه المسكت ، وتشبيهاته المصيبة الى اختراعاته الغريبة ، وأوصافه البارعة الى أمثاله السائرة ، وجده المعجب الى هزله المطرب ، وجزله الرائع الى رقيقه البارع »(٤٦) •

وفى مجال الوصف تأتى ملكة الانشاء عند الحصرى فيكون سجعه

---

(٤٦) زهر الآداب ١/١ •

مقبولا فيه دقة فى الصنع وحذق فى رصف الكلام ، وذلك مثل قوله يصف آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم :

« أهل الفضل والاحسان ، وتلاوة القرآن ، ونبعة الايمان ، وصوام شهر رمضان ، ولهم كلام يعرض فى حلى البيان ، وينقش فى فص الزمان ، ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضح قلائد الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر .

ولم لا يطأون ذيول البلاغة ، ويجرون فضول البراعة ، وأبوهم الرسول ، وأمهم البتول ، وكلهم قد غذّى بدر الحكم وربى فى حجر العلم » (٤٧) .

ولكن من الحق أن نقول : ان الحصرى يلتزم بالسجع فى كثير من مادة الكتاب ، ونراه أحيانا يترسل فيخفف من عبء الالتزام بالسجع الذى تغلب عليه الصنعة حينا أو يجمع فيه بين دقة الصنع ورقة الطبع حينا آخر كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ثانيا : تضمين الكاتب نثره فى بعض الأحيان شعرا لغيره أو لنفسه :

ولقد تأثر الحصرى فى هذا الجانب بطريقة بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ورسائله ، حيث كان ذلك منحى البديع فى أدبه بصفة عامة ، ولقد لاحظنا أن الحصرى كثيرا ما يضمن كلامه بالشعر الذى يؤكد به الفكرة التى يسوقها فى الكلام سواء كان هذا الشعر من نظمه أو من نظم غيره ، وربما كان هذا الأسلوب سمة واضحة لكتاب القرن الرابع الهجرى بصفة عامة .

ومن أمثلة ذلك أننا نراه يختم وصفه لآل البيت الذى ذكرناه آنفا بقوله :

---

(٤٧) المصدر السابق ١/٥٦ وما بعدها .

ما منهم الا مربى بالحجى أو مبشر بالأحوذية مؤدم (٤٨)

فهو يضمن حديثه عن آل البيت رضوان الله تعالى عليهم بهذا البيت الذى لا نعرف هل هو من شعره أو شعر غيره •

ثالثا : اختياره للألفاظ السلسة والعبارات الواضحة :

وهذا راجع الى طبع الحصرى وذوقه الأدبى وحسه الفنى ، فهو لا يميل الى التكلف والغموض فى أداء المعنى ، بل يعرض أفكاره فى اسلوب واضح لا لبس فيه ولا ابهام ، وهذا ما دفعه الى اختيار الشعر الرائق الذى يخلو من وعورة الألفاظ وتعقيد المعـانى ، ومن ثم نراه لا يختار حوشى الأشعار وغريبها مما ورد فى الشعر الجاهلى ، ذلك ذلك يتلاءم مع طبعه وذوقه الأدبى واسلوبه الذى يختاره بدقة وتأن وحس فنى رقيق •

رابعا : ميل الكاتب الى الاستطراد اذا كان هناك مناسبة لذلك :

فهو يعنى بالاستطراد ويكثر من سوق النصوص للاستشهاد بها حتى يجلى الموضوع الذى يتحدث فيه ويوضحه فى ذهن القارىء ، ونراه لا ينبه قارئه اذا عاد من استطراده الا نادرا •

ويدفعه الى هذا الاستطراد المناسبة التى تبدو له ، فهو ينتهز مثل هذه المناسبة ليستطرد فى حديثه ويسوق الجمـل المترادفة ويذكر من محفوظه ما كان يدونه ما يناسب الموضوع الذى يدور فى فلكه ••• وربما كان يهدف من وراء ذلك الى تحقيق المتعة الذهنية للقارىء •

خامسا : التنويع الأدبى فى موضوعات الكتاب :

وهذه سمة واضحة فى أسلوب الحصرى ، فهو ينتقل بالقارىء من فن الى فن ويستدرجه من حديث الى حديث ليحقق له المتعة الذهنية ،

---

(٤٨) زهر الآداب ١/٥٧ •

فلا يحس القارىء بالسأم والملل ، ولهذا نرى الكـاتب لا يهدف الى تنظيم الموضوعات وترتيبها والحاق الشكل بنظائره الا فى حالة واحدة وهى حينما تكون المعانى نادرة ويعز طلبها ويصعب الحصول عليها .

أما فى غير ذلك فهو يميل الى التنويع والتفريق بين الموضوعـات لأنه يرى أن فى التفريق لذاذة الامتاع اذا كان الخروج من جد الى هزل ومن حزن الى سهل أنفى للكلل وأبعد عن الملل(٤٩) ، ونراه يؤكد هذا الاسلوب فى مقدمة كتابه (زهر الآداب) حيث يقول :

«وقد نزعت فيما جمعت عن ترتيب البيوت ، وعن أبعاد الشكل عن شكله ، وافراد الشىء من مثله ، فجعلت بعضه مسلسلا،وتركت بعضه مرسلا ، وقد يعز المعنى ، فألحق الشكل بنظائره وأعلق الأول بآخره ، وتبقى منه بقية أفرقها فى سائره » (٥٠) .

ولقد كانت هذه سمة الحصرى فى معظم مؤلفاته ، وها هو يقول فى مقدمة كتابه (جمع الجواهر) بيتين من الشعر يلخص فيهمـا هذا المنهج فيقول :

فـرقت فى التـأليف معتمـدا
مـا كان لو قد شـئت يأتلف
والعقد مـا اختلفت جواهـره
الا ليشرق حـين يختلف (٥١)

ولقد حقق الحصرى المتعة للقارىء بهذا التنويع الأدبى ، وهو التلوين الفنى الذى التزم به فى هذا الكتاب وغيره .

---

(٤٩) انظر : زهر الآداب للحصرى ٢/١ .
(٥٠) المصدر السابق (الصفحة نفسها) .
(٥١) انظر مقدمة أبى اسحاق الحصرى لكتابه (جمع الجواهر) .

٤ ــ الجانب النقدى فى كتاب زهر الآداب :

لقد اشتمل كتاب « زهر الآداب » للحصرى على كثير من القضايا النقدية ، مبثوثة فى ثنايا الكتاب تدل على فهم صاحبه لجوانب متعددة من جوانب النقد الموضوعى المتأثر بالمقاييس النقدية التى وضعها النقاد العرب والتى قرأها الحصرى فى كتبهم القيمة التى ألفوهـا ، ومعظم هؤلاء من كتاب المشرق الذين درسوا هذه القضايا دراسة مستفيضة ، وأعجب بها الحصرى وعكف على درسها وتدوين ما راق له منها ، ثم نقله الى هذا الكتاب الجامع لكثير من قضايا النقد بالاضافة الى نقده الذاتى ، وأحكامه العامة المجملة ، فهو يستحسن شـعرا ويحكم عليه بالحسن ويستقبح شعرا آخر ويحكم عليه بالرداءة والقبح ، ويضيف الى ما كتبه السابقون لمسات نقدية رائعة تدل على حسه الأدبى وذوقه النقدى وذكائه البارع ، وموهبته الأصيلة وثقافته الرفيعة .

ومن القضايا النقدية التى أخذت حظا وافرا من اهتمام الحصرى فى كتاب (زهر الآداب) قضية (السرقات الشعرية) ، ولقد حفل هذا الكتاب بأحكام مستفيضة للسرقات الشعرية ، وكان الكاتب دائما يجدها فرصة مناسبة أن يشير الى نوع من أنواع السرقات كلما سنح له ذلك ، وكان يقصد من وراء هذا امتاع القارىء بهذا اللون النقدى الذى حاز على اهتمام النقاد فى كل العصور الأدبية،خاصة بعدما قامت الخصومات الأدبية حول سرقات أبى تمام وسرقات المتنبى ، وسرقات أبى نواس .

ولم ينتهج الحصرى نهج النقاد السابقين ممن تأثر بهم ونقل عنهم فلم يدرس قضية السرقات جملة واحدة كما فعل هؤلاء النقاد ، ولكنه طعم كتابه بألوان وأنواع من السرقات الشعرية ، وأشار الى كل مصطلح منها كما تعارف عليه النقاد السابقون ، ونرى هذه السرقات مبثوثة فى ثنايا الكتاب من أوله الى آخره .

والملاحظ فى دراسة الحصرى للسرقات الشعرية أنه كان يتحامل على الشعراء المتأخرين ، فهو يحكم عليهم أحيانا بالأخذ أو السرقة من السابقين لو كان المعنى متقاربا ، حتى ولو كان المعنى مشتركا وأضاف عليه اللاحق حسن الصياغة وتصرف فيه ببعض ألوان التصرف ، وهذا أمر يقع فيه الحصرى كثيرا ، ويعاب عليه .

والشيء الذى نسجله للحصرى فى أحكامه النقدية للسرقات الشعرية هو تتبع الحصرى للشعراء ومعانيهم تتبعا دقيقا يدل على ثقافته العالية وقوة حافظته وحضور بديهته وكثرة محفوظه ومقروئه فما يمر الحصرى على أبيات لشاعر الا ويشير الى أنه أخذ هذه المعانى من شاعر سبقه ، ويسجل ذلك فى معظم ما أورده من الشعر فى هذا الكتاب ، وهذا يدل على مقدرته الأدبية وثروته العلمية الفائقة .

ومن الجدير بالذكر أنه يحكم عند النقاد بالسرقة فى المعانى والأخيلة المبتكرة التى لم يبتذل ، ولم يشع استعمالها بين الشعراء ، وكذلك يحكم بالسرقة فى التعبيرات المبتكرة وهى الجمل المركبة التى لم يشع استعمالها أيضا بين الشعراء ، فلا سرقة فى المعانى المشتركة والمعانى المبتذلة الشائعة عند الشعراء جميعا .

ولقد كان للحصرى دور هام فى الاشارة الى ابتكارات الشعراء باستقصاء تام ورصد أبى دقيق يدل على مقدرة فائقة وذهن متوقد وعلم وافر ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : أن الحصرى يشير الى أن أول من ابتكر معنى ملاحظة الطير للمغير ثقة بالكسب هو الأقيوه الأودى فى قوله :

وأرى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار (٥٢)

---

(٥٢) زهر الآداب للحصرى ٢/١٠٠٠ تحقيق الأستاذ على البجاوى

ومنها أن أول من نبه على تشبيه ذى الصولة والملك الواسع بالليل أو النهـار لا يستطيع أحد أن يهرب منهما هو النـابغة الذبيانى حيث يقول :

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع (٥٣)

ومنها أن أول من ابتكر معنى المثل المشهور « ألقى عصا التسيار » هو زهير بن أبى سلمى ، وذلك فى قوله :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخم (٥٤)

ومنها أن أول من ذكر (قيد الاوابد) هو أمرؤ القيس ، وذلك فى قوله :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل(٥٥)

ومنها أن أول من ذكر عذوبة ريق الحسناء ثم احترس بأنه لم يذقه هو النابغة الذبيانى فى وصف المتجردة حيث يقول : (٥٦)

زعم الهمام بأن فاهـا بارد
عذب مقبلة شـهى المورد
زعم الهمـام ولم أذقـه أنه
يشفى بريا ريقها العطش الصدى

ويرى الحصرى أن لهؤلاء الشعراء وأمثالهم ممن ابتكروا المعانى فضل ابتكارها وابتداعها ، وأن الذين أتوا بعدهم وفتقوا هذه المعانى قد أخذوها ممن سبقهم ، وحكم عليهم بهذا الحكم .

---

(٥٣) المصدر السابق ٢/١٠٣١ .
(٥٤) زهر الآداب للحصرى ١/١٨٥ .
(٥٥) المصدر السابق ١/١٠ .
(٥٦) زهر الآداب للحصرى ١/٢٢٨ .

ومع هـذه المقدرة الأدبية التى جعلت الحصرى يتتبع الشـعراء ومعانيهم،ويسجل ابتداعات الشعراء وابتكاراتهم ، الا أنه خالف أحيانا بعض النقاد الذين يرون أنه لا سرقة فى المعانى المشتركة ومنهم القاضى الجرجانى والآمدى وغيرهمـا ، وممـا يدل على ذلك قول الآمدى فى (الموازنة) : « لا يجرى الحكم بالسرقة الا فى المعنى البديع المخترع لا فى المعانى المشتركة ، لا سيما ما تقدم الناس فيه ، وتردد فى الأشعار ذكره ، وفى الطباع والاعتياد » (٥٧) ، ولكن الحصرى يرى فى بعض المعانى المشتركة أخذا ، ويخالف النقاد فى هذا الحكم ، وفى الحقيقة : ان المعانى المشتركة لا سرقة فيها بصفة عامة ، وانما تكون السرقة فيها اذا دلت القرائن على أن الشاعر قد أخذ المعنى كله دون تغيير أو تبديل أو تصرف ، بأن يكون غرض الشاعرين واحدا ، ويشتركان فى المعنى كلية بما فيه من تعبير وتصوير •

ولقد ذكر الحصرى فى كتابه (زهر الآداب) ألوانا من المعـانى المتفقة بين نصين فى المعنى أو اللفظ ، وحكم عليها بالأخذ ، ومنها مـا يسمى عند النقاد بالاغتصاب والاغارة والاقتباس ، وقد أشار اليهـا الحصرى وأكدها بالأمثلة الكثيرة فى ثنايا الكتاب •

فمن أمثلة (الاغتصاب) ما ذكره الحصرى من أن أبا نواس سمع الحسين بن الضحاك حين قال :

كأنما نصب كأسـه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

فاغتصب المعنى وقال :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

وعندما حدثه الحسين بن الضحاك فى ذلك قال له : أتظن أنه يروى

---

(٥٧) الموازنة للآمدى ٣٤٦/١ وما بعدها تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ١٩٧٢م •

لك معنى مليح وأنا فى الحياة (٥٨) • وسمى (اغتصابا) لأن الآخذ أعلن ذلك لمن أخذ منه •

ومن هذه الألوان التى ذكرها الحصرى (الاغارة) وهى أن يغير شاعر على بيت لشاعر آخر ، فيأخذ بعضه أو جله ، وتسمى الاغارة (الاجتلاب) عند بعض النقاد ، وهو أخذ البيت بلفظه ومعناه أو بتحوير قليل فى لفظه ، ويسمى عند ابن رشيق القيروانى بالانتحال •

ومن أمثلة (الاغارة) ما ذكره الحصرى أن ابن بسام قد أغار على قول على بن الخليل :

لا أظلم الليل ولا أدعى
أن نجوم الليل ليست تزول
ليلى كما شاءت قصير اذا
جادت وان ضنت فليلى طويل

فلم يغير ابن بسام الا القافية حيث يقول :

لا أظلم الليل ولا أدعى
أن نجوم الليل ليست تغور
ليلى كما شاءت فان لم تزر
طال وان زارت فليلى قصير (٥٩)

ومن الألوان التى حكم فيها الحصرى بالأخذ فيها (الاقتباس) وما فى حكمه من صور التضمين ، وأمثلة هذا اللون كثيرة ، منها ما ذكره الحصرى أن العباس بن الوليد حين قال :

عزيزى من خليلى من مرادى أريد حياته ويريد قتلى

---

(٥٨) انظر : زهر الآداب للحصرى ٤١٧/١ •
(٥٩) زهر الآداب للحصرى ٧٤٩/٢ •

فقد اقتبس هذا المعنى من قول عمرو بن معد يكرب :

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مرادى (٦٠)

ومثل ذلك حين يقتبس الشاعر من القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف أو أقوال العرب المشهورة أو يقتبس من حكم غير عربية مترجمة .

وعندما نقرأ فى (زهر الآداب) نلاحظ أن الحصرى يوضح السرقات الصحيحة التى تكون فى نصوص معينة ، وقد تأكد الناقد من أخذها من نص آخر معين ، وهذه السرقات تجرى فى المعانى المبتكرة والجمل التى لم يشع استعمالها بين الشعراء أو التى تكون فى صور بديعية مبتكرة .

وهذه السرقات منها ما يكون صريحا وتعنى أن الآخذ لم يحاول اخفاء سرقته ومنها ما يكون خفيا وتعنى أن الآخذ يحاول اخفاء معالمها بشتى الطرق من قلب واضافة وتقديم وتأخير والمام ببعض المعنى دون البعض الآخر .

فمن السرقات الصريحة الاتفاق فى المعنى والاشتراك فى أغلب الألفاظ ، وذلك كقول محمد بن هانىء الأندلسى :

والمشرقيات النيرات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر

فقد أشار الحصرى الى أن الشاعر قد أخذ معنى البيت من قول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر(٦١)

---

(٦٠) انظر زهر الآداب للحصرى ١/٣٨ وما بعدها .
(٦١) انظر : زهر الآداب للحصرى ٢/٦٤٨ .

ومن السرقـــات الصريحة من قول أبى دهبل الجمحى فى معنى (الحياء الذى يسقم) :

نزر الكلام من الحياء تخاله ضمنا وليس بجسمه سقم

فقد أخذ هذا المعنى من قول ليلى الأخيلية :

وممزق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيما (٦٢)

ومن السرقات الصريحة ما يكون فى التشبيه النادر ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الحصرى من قول ابن المعتز العباسى يصف النسيم وهو يحرك البرد فوق ظهور الابل وينفث الراقيات :

يهز برود العصب فوق متونها نسيم كنفث الراقيات عليل

فقد أخذ هذا التشبيه المبتكر النادر عبد الكريم بن ابراهيم (٦٣) حيث يقول :

ضعيفة رش كنفث الرقى على كبد المدنف المغرم (٦٤)

وذكر الحصرى أيضا فى كتابه (زهر الآداب) ألوانا من السرقات الخفية التى يحاول اخفاء معالمها كما أشرنا الى ذلك من قبل :

ومن صور ذلك الالمام والنظر والملاحظة وقلب المعانى •

أما الالمام فهو أخذ المعنى وبعض لفظه ، وأما الملاحظة ففيهـــا معنى الاحتذاء والتقليد والمحاكاة ، والالمام لون من ألوان النظر ، وهذه الألوان تعنى الأخذ بخفاء •

---

(٦٢) انظر : زهر الآداب ١/١٨٠ •

(٦٣) لعله عبد الـكريم بن ابراهيم النهشـلى وهو من المعاصرين للحصرى •

(٦٤) انظر زهر الآداب ٢/٧٧٦ وما بعدها •

وقلب المعانى أيضا من ألوان السرقات الخفية ، وهى حيلة من حيل الشعراء لاخفاء سرقاتهم •

ولقد أكثر الحصرى من ذكر النماذج الدالة ــ كعادته ــ على هذه الألوان من السرقات الشعرية ، ويكفى أن نذكر بعض هذه النمــاذج لتوضيح ما ذكرناه •

فمن أمثلة (الالمام) التى ذكرها الحصرى قول أبى العتاهية :

ان المطايا تشــتكيك لأنهــا
قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن مخفة
واذا صدرن بنا صدرن ثقالا

فان أصحاب المطايا قد وفدوا على الممدوح ليس معهم شىء وقد راجعوا وهم مثقلون بالعطايا ، وقد ألم أبو العتاهية فى هذا المعنى بقول نصيب الأكبر :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب(٦٥)

فحقائبهم ممتلئة بالعطايا ، ولو سكتوا هم ما سكتت هذه الحقائب التى تشهد بفضل الممدوح وكثرة عطاياه •

ومن أمثلة (النظر) التى ذكرها الحصرى قول أبى الطيب المتنبى :

كام الهام فى الهيجاء عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

فهو يشبه هام الأعداء بعيون تحت الرقاد ، وما رقادها الا سيوف الممدوح ، والمتنبى ينظر فى هذا المعنى الى قول مســلم بن الوليد من طرف خفى حيث يجعل الجماجم مقيلا للسيوف ، وذلك فى قوله :

---

(٦٥) انظر : زهر الآداب ٢/٣٣٢ •

قـــوم اذا احمـــر الهجـــير من الوغى
جعلوا الجماجم للســـيوف مقيلا(٦٦)

وأما (الملاحظة) ففيها معنى الاحتذاء والتقليد والمحاكاة فى أداء المعنى ، وقد ذكر الحصرى عدة أمثلة لهذا اللون من السرقـــات الذى يحاول فيه الآخذ اخفاء ما أخذ ، ومن أمثلة ذلك قول ابن الرومى يصف حديث امرأة :

شرك العقول ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفر

فهو يحتذى قول الطائى (يريد أبا تمام) :

لها منظر قيد النواظر لم يزل يروح ويغدو فى خفراته الحب (٦٧)

فنحن نجد أن قول ابن الرومى (عقلة المستوفر) محـــازاة لقول الطائى (قيد النواظر) ، والمعنيان يلحظـــان قوة الســـحر والأسر ، فصاحبه ابن الرومى تحبس المتخفر عن القيام بحسن حديثها ، وصاحبه الطائى تحبس النظر بحسن جمالها .

ونلاحظ ما فعله ابن الرومى لنقل المعنى واخفائه ، فقد جعل قوة الأسر والتأثير لحديث محبوبته ، بينما جعل الطائى قوة التأثير فى حسنها وجمالها .

* * *

وننتقل بعد ذلك الى الحديث عن قضية نقدية أخرى تحدث عنها الحصرى فى كتابه (زهر الآداب) ألا وهى قضية « اللفظ والمعنى » .

وخلاصة ما رآه الحصرى فى هذه القضية أنه لابد للطبع المطبوع من صنعة تهذبه وتصقله ، فـــلا يغنى الطبع عن الصـــنعة ، ولا تغنى

---

(٦٦) انظر : زهر الآداب للحصرى ٢/٧٢ .
(٦٧) انظر : زهر الآداب ١/٩ وما بعدها .

الصنعة عن الطبع ، فكلاهما متمم للآخر في سبيل اجادة الشاعر وحذقه وأتقانه .

ويفهم من كلام الحصرى أن المعانى تصدر عن الطبع ، وانما تدخل الصنعة فى الألفاظ والصياغة والأساليب ، ولا يمكن أن تكون الصنعة والتنقيح فى المبانى دون اصلاح المعانى ، فكلاهما لازم للآخر ، وأن الطبع وحده لا يكفى لايراد نوادر المعانى بل لابد من اعمال الذهن وتدقيق الفكر ، لأنه ربما صدر عن الطبع معنى رثا لا قيمة له ، ويستشهد الحصرى فى ذلك بما قاله بشار بن برد : « انما الشاعر المطبوع كالبحر مرة يقذف صدفة ، ومرة يقذف جيفة » (٦٨) .

وبما قاله أيضا : انه لا يقبل كل ما تورده عليه قريحته(٦٩) .

ويستدل الحصرى على ما ذهب اليه من حاجة الطبع للصنعة بما حدث للبحترى ، فقد كان ينساق وراء طبعه حتى هداه أبو تمام — أستاذه — الى الأجواء التى يمتزج فيها الطبع والصنعة ، ومن ثم فقد ذاع شعره وصقلت موهبته وعبقريته ، واشتهر أمره (٧٠) .

ولا يفهم من حديث الحصرى حبه للصنعة بكل ألوانها ، فانه يكره من الشاعر التعمل والاستكراه والمبالغة فى الصنعة حتى تذهب برونق التعبير وجمال التصوير ، ومن ثم فان رأى الحصرى يتخلص فى : التوسط بين الحالين من الطبع والصنعة .

وللحصرى حديث رائع فى هذه القضية نذكر جزءا منه لتأكيد ما قلناه حيث يقول : « والكلام الجيد الطبع مقبول فى السمع،قريب المثال،

---

(٦٨) زهر الآداب للحصرى ١/٢٢٨ .
(٦٩) المصدر السابق ١/١١٠ .
(٧٠) انظر فى ذلك : زهر الآداب للحصرى ١/١١٠ ومابعدها .

بعيد المنال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة يدنو من فهم سامعه ، كدنوه من وهم صانعه ، والمصنوع مثقف الكعوب معتدل الأنبوب ، يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن فى صفحاته ، كما يجول السحر فى الطرف الكحيل ، والأثر فى السيف الصقيل ، وحمل الصانع شعره على الاكراه فى التعمل وتنقيح المبانى دون اصلاح المعانى ، يعفى آثار صنعته ، ويطفىء أنوار صبغته ، ويخرجه الى فساد التعسف ، وقبح التكلف ، والقاء المطبوع بيده الى ما يبعثه هاجسه ، وتنفثه وساوسه من غير اعمال النظر وتدقيق الفكر يخرجه الى حد المشتهر الرث ، وحيز الغث .

وأحسن ما أجرى اليه وأعول عليه : التوسط بين الحالين والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة » (٧١) .

ومن الأمور النقدية التى عرضها الحصرى مبثوثة فى ثنايا الكتاب (الموازنات الأدبية) ، وقد اعتمد الحصرى فى هذه الموازنات على ذوقه وفطرته واستحسانه لنص ، وتفضيله على النص الآخر ، دون شرح أو تعليل فى كثير من الأحيان .

وهذه الموازنات تعد عملا فنيا دقيقا لا يجيده الا النقاد الذين آتاهم الله حسا أدبيا وذوقا فنيا دقيقا ، وهذه الموازنات معيار فنى دقيق لمقياس الجودة أو القبح ، وقد يعتمد الناقد فيها على ذوقه الخاص واستحسانه الفطرى ، وفيها يوازن الناقد بين نصين أو يحكم بين شاعرين ، فيفضل نصا على الآخر ، أو يفضل شاعرا على آخر فى معنى واحد أو غرض واحد أو موضوع واحد وما أشبه ذلك .

ولقد اعتمد الحصرى فى موازناته الأدبية ــ فى بعض الأحيان ــ على ما كتبه النقاد السابقون فى هذا الفن النقدى الدقيق ، ولا ننكر

---

(٧٦) زهر الآداب للحصرى ٢/٨٣٨ وما بعدها .

دور الذوق الأدبى والحس الفنى الذى تميز به الحصرى ، والذى كان له دور كبير فى الحكم على شعراء دون شعراء بالتفوق والاجـادة ، والحكم لنص دون نص بالجودة والاتقان •

كما ساعد الحصرى على ذلك ذاكرته القوية وكثرة ما دونه وحفظه من الشعر العربى فى مختلف عصوره ، فالحصرى ــ كما علمنا ــ كـان مولعا بتتبع الشعراء ومدى نقلهم للمعانى وأخذهم من السابقين عليهم ، وقد امتلأ كتابه بسرقات الشعراء اللاحقين من المسـابقين وأخذهم لمعانيهم سواء حـاولوا اخفاء سرقاتهم أو اظهارها فيمـا يقولون من شـعر •

وأحيانا يذكر الحصرى موازنة مجملة بين الشعراء نقلها من كتب أخرى قرأها ، ومن ذلك ما رواه عن خالد بن صفوان حين وازن بين الفرزدق والأخطل وجرير (وهم شعراء النقائض) عند هشـام بن عبد الملك لما طلب منـه ذلك ، فقال عن الفرزدق : انه أعظمهم فخرا ، وأبعدهم ذكرا ، وأحسنهم عذرا ، وأسيرهم مثلا ، وأقلهم غزلا وأحلاهم عللا ، وقال عن الأخطل : انه أحسنهم نعتا وأمدحهم بيتا وأقلهم فوتا • وقال عن جرير : انه أغزرهم بحرا ، وأرقهم شعرا وأكثرهم ذكرا (٧٢)•

وفى الموازنات الأدبية التى ساقها الحصرى نراه أحيـانا يعلل لأسباب السبق والأفضلية والتفوق ، وأحيانا يترك هذا التعليل ، ولا يصرح بأسباب السبق الذى وجده فى شاعر دون الآخر •

فمن الموازنات التى ذكرها الحصرى وعلل لحكمه فيها ما جاء فى كتاب (زهر الآداب) حيث قال : مدح الناس السواد فأكثروا ، فمن جيد ما قالوا فيه قول أبى حفص الشطرنجى :

---

(٧٢) زهر الآداب للحصرى ٢/٦٣٤ •

أشبهك المسك وأشبهته
قائمة فى لونه قاعده
لا شك اذ لونكما واحد
أنكما من طينة واحده

فأخذ ابن الرومى هذا المعنى ، وأضاف اليه أشياء أخر توسعا واقتدارا فقال :

يذكرك المسك والغوالى والمسك ذوات النسيم والعبق

وهذه الأشياء وان كانت ناقصة عن المسك ، فهى ممدوحة بالطيب غير مستغنى عن ذكرها فى التشبية (٧٣) .

ويبدو لنا أن الحصرى قد حكم لابن الرومى وفضله عن الشطرنجى على الرغم من أخذه منه ، فقد توسع ابن الرومى فى المعنى مما يدل على اقتداره ، كما أنه لم يقتصر على المسك كما فعل الشطرنجى ، وهذا يدل على أن الآخذ اذا توسع فى مثل هذا التشبيه فاق السابق عليه .

ومن هذا القبيل ما ذكره الحصرى من موازنة بين بيتين أحدهما للخنساء والآخر للبحترى ، فالخنساء تمدح أباها وأخاها وتصفهما بأنهما متساويان فى السباق ، وأنهما يتبادلان الغبار المنشور كأنه ملاءه حيث تقول :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الحضر

ويقول البحترى يمدح رجلين بالتساوى فى الفضل :

واذا جرى فى غاية وجريت فى أخرى التقى شاوكما فى المنصف

ثم وازن الحصرى بين البيتين وحكم للخنساء فقال : يتعاوران ملاءة الحضر أبرع استعارة وأنصع عبارة (٧٤) .

---

(٧٣) زهر الآداب للحصرى ١/٢٢٩ .
(٧٤) المصدر السابق ٢/٩٦ .

وأحيانا يكتفى الحصرى بعبارة الاستحسان والتفضيل فقط ، ومن ذلك ما ذكره عن موازنة بين ثلاثة من الشعراء فى وصف غلام يشرب من كأس ، وهم : الحسين بن الضحاك وأبو نواس وابن الرومى .

فها هو الحسين بن الضحاك يقول فى وصفه :

كأنما نصب كأســـه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

وها هو أبو نواس يقول فى وصفه :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

ونرى الحصرى يقول بعد ذلك : وقال ابن الرومى فكان أحسن منهما :

ومهفهف كملت محـــــاسنه
حتى تجــاوز منيــة النفس
تصبو الكؤوس الى مراشفه
وتضج فى يده من الحبس
أبصرتهــا والكأس بين فم
منـــه وبين أنــامل خمس
فكأنهــا وكــأن شاربهــا
قمر يقبل عارض الشمس (٧٥)

ومن هذا اللون ما ذكره الحصرى من أن الحارث بن خالد قــال يتغزل :

توفيك شيئا قليلا وهى خائفة كما يمس بظهر الحية الفرق

قال الحصرى معقبا عليه : أخذ هذا الطائى (أبو تمام) فحسنه :

(٧٥) زهر الآداب ١/٤١٧ وما بعدها .

تأبى على التصريد الا نائلا
الا يكن ماء قراحا يمذق
نزرا كما استكرهت عابر نفحة
من فأرة المسك التى لم تفتق

فالشاعر الأول يشبه حالتها وهى تمنح القليل بحالة من يمس ظهر حية على وجل ، لكن الشاعر أبا تمام يشبه نائلها القليل غير الخالص بالماء المذوق ، كما يشبهه باستكراه العبير من فأرة المسك التى لم تفتق ومن هنا حكم له الحصرى بالحسن والاجادة فى تفتيق المعنى وتحسينه •

وهناك موازنات كثيرة أوردها الحصرى فى كتابه بين شعراء كثيرين فى غرض واحد ، ونراه يستطرد فى هذا المقام ويفيض فيه ، ويدلى برأيه فى تفضيل شاعر على الشعراء الآخرين أو تفضيل معنى على معان أخرى ، ونراه يذكر من كتب النقد ما كان يحدث فى المجالس الأدبية من الموازنات الفنية التى كانت تحدث بين الأدباء والخلفاء وغيرهم ، كالموازنات التى حدثت حول شعراء النقائض ، والموازنات التى دارت حول وصف الليل ، والموازنات التى كانت تدور حول وصف الثغور والأفواه والريق وما الى ذلك • وكذا الموازنات حول أحسن بيت قالته العرب فى كل غرض من الأغراض الشعرية المتنوعة •

ولقد تناول الحصرى كثيرا من الموضوعات النقدية الأخرى التى يستخلصها القارىء من ثنايا الكتاب ، أو من تعليقات الحصرى على ما يعرض من النصوص الأدبية التى يسوقها فيه ، فهناك أحكام نقدية حول (البديع) وصوره المتنوعة المختلفة ، وهناك حديث حول الايجاز والاطناب ، ومراعاة الكلام لمقتضى الحال ، ونقد المعنى واللفظ والوحدة العضوية وغير ذلك من الألوان النقدية •

ونعرض بايجاز لرأيه فى موضوع الوحدة العضوية ، وكان يعبر عنها قديما بقولهم (ترابط القصيدة) ، ونراه ينقل كلاما للحاتمي حول هذه القضية منها قوله « القصيدة كالجسم فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه » .

وتحدث الحصرى عن (حسن التخلص) كوسيلة من وسائل ترابط القصيدة العربية ، وأخذ يؤرخ لمذهب الشعراء فى تحقيق ترابط القصيدة وأن الأوائل من الفحول ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين كانوا يكتفون بقولهم : عد عن كذا الى كذا ، وقول بعضهم : دع ذا ، وربما فاتهم معنى لطيف يتخلص فيه الشعراء الى الغرض الذى ينشده ، ومن ثم لم يعن الشاعر القديم بالربط الفنى بين أجزاء القصيدة .

أما حذاق الشعراء من أرباب الصناعة من المحدثين ، فقد حرصوا على ترابط أجزاء القصيدة لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتمادهم على البديع وأفانينه فى أشعارهم .

ويرى الحصرى — مثل النقاد السابقين — أن الترابط بين القصيدة ضرورى ، لأن القصيدة كالجسم الواحد يختل كله باختلال أجزائه (٧٦) ولكنه ركز على وسيلة واحدة لهذا الترابط وهى حسن التخلص ، وأغفل الوسائل الأخرى كحسن الابتداء وبراعة الاستهلال وحسن الختام .

دكتور / على محمد على طلب
أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

---

(٧٦) انظر : زهر الآداب للحصرى ٥٩٧/١ وما بعدها .